(ابن عطاء الله السكندري) ت :709هـ
وأثره في الدعوة إلـى الله
دراسة تحليلية

الطالب: أحمد محمد عبد الهادي

لدرجة الماجستير

في كلية الآداب قسم اللغة العربية – شعبة الدراسات الإسلامية

ىئكةرقيپ هآتفئ غى ىئكخعهب ىئكى ىئ﴿ ه ةهطيفـهئ خعهيئ لم خلإك

زيڤ ىئام عضئ؟ ىئ﴿ ىئكزقمخنى

مصطلح التزكية من المصطلحات المهمة في الخطاب الدعوي؛ فضلا عن أنه قيمة أساسية من قيم الإسلام.. وقبل الولوج في مسالك التزكية، ودروبها وأهميتها بالنسبة للفرد والمجتمع على حد سواء ينبغي تحديد مفهوم التزكية والوقوف علي ماهيتها: وينتظم الحديث عن التزكية في المطالب التالية :

ىئكلضكا ىئلآهك : لفـهل ىئكةرقيپ

التزكية من المادة الثلاثية (زكا) نقول (زكا زكاء وزكوّاً)[1] "وأصل الزكاة في اللغة الطِهارة والنماء والبركة والمدح" [2] وزاد الراغب الاصفهاني قيدا لهذا النماء فقال " أصل الزَّكاة: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدّنيويّة والأخرويّة. يقال: زكا الزّرع يزكو: إذا حصل منه نمو وبركة." [3]

قال صاحب (تاج العروس): ".. تزكية النفس ضربان: فعلية، وهي محمودة ممدوحة شرعا، كقوله تعالى {قد أفلح من زكاها} بأن يحملها على الاتصاف بكامل الأوصاف. وقولية،

(1) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م 236/8 ، معجم مقاييس اللغة دار الفكر 3 /17

(2) لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (المتوفى: 711هـ) دار صادر – بيروت 14 /358

(3) المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي: دار القلم، الدار الشامية - دمشق 1 /381

وهي مذمومة، كقوله تعالى {فلا تزكوا أنفسكم} أي بثنائكم عليها وافتخاركم بأفعالكم، وأنشد ابن التلمساني:

دع مدح نفسك إن أردت زكاءها ... فبمدح نفسك عن مقامك تسقط

ما دمت تخفضها يزيد علاؤها ... والعكس فانظر أي ذلك أحوط " [4]

ومادة (زكا) تدور في القرآن على معنيين :

الأول : الزيادة والنماء الناشئ عن البركة

الثاني : اصلاح النفس وتطهيرها من الدنس

قال (ابن منظور)[5] : ".. وهي من الأسماء المشتركة بين المخرج والفعل، فيطلق على العين؛ وهي الطائفة من المال المزكّى بها، وعلى المعنى؛ وهي التزكية " [6].

والمعني الأول (الذي هو بمعني الزيادة والنماء) ليس محل البحث؛ بل المعني الثاني هو المقصود؛ وهو التزكية بمعني (تطهير النفوس واصلاحها بالعلم النافع والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المنهيات).

قال شيخ الإسلام(ابن تيمية) _ رحمه الله _ : "والزكاة في اللغة: النماء والزيادة في الصلاح، يقال: زكا الشيء إذا نما في الصلاح، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يربَّى بالأغذية المصلحة له، ولا بدّ مع ذلك من منع ما

---

[4] تاج العروس من جواهر القاموس المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: 1205هـ): دار الهداية 1 /91

[5] محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، صاحب (لسان العرب) (630 - 711 هـ = 1232 - 1311 م) : الإمام اللغوي الحجة. من نسل رويفع بن ثابت الأنصاري. ولد بمصر (وقيل: في طرابلس الغرب) وخدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة. ثم ولي القضاء في طرابلس .وعاد إلى مصر فتوفي فيها، وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد، وعمي في آخر عمره... الاعلام للزركلي108/7

[6] لسان العرب 14 /358

يضره، فلا ينمو البدن إلا بإعطائه ما ينفعه ومنع ما يضره، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا" (7)

ئكلضكا ئكتثمى: حخيت ئكقنم عم ئكةرقي

تحدث القرآن الكريم عن التزكية في أكثر من موضع؛ فجعلها مقصداً أساسياً من مقاصد الوحي الشريف، وركيزة حيوية من ركائز دعوة الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم ؛ وذلك في أربع مواضع في الكتاب العزيز وترتيبهم على النحو التالي:

1- يقول الله تعالى حاكيا عن إبراهيم عليه السلام وهو يرفع القواعد من البيت " رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "[البقرة :129]، فجعل من إحدى مهمات الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يعمل على تزكية أتباعه.

يقول (الطاهر بن عاشور) _ رحمه الله _: "والتزكية: التطهير من النقائص، وأكبر النقائص الشرك بالله، وفي هذا تعريض بالذين أعرضوا عن متابعة القرآن وأبو إلا البقاء على الشرك. وقد جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها ؛ لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن، ثم يكون تعليم معانيه، قال تعالى: فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه [القيامة: 18، 19] والعلم تحصل به التزكية؛ وهي في العمل بإرشاد القرآن." (8)

ولا يخفى على العاقل أن ورثة الأنبياء من العلماء يتخذون منهج الرسل في الدعوة إلى الله تعالى، وإرشاد الخلق لما فيه صلاحهم وسعادتهم، وتأتى التزكية في مقدمة مراتب الدعوة إلى الله، كما بين القرآن الكريم في إشارة الي أهميتها وخطرها؛ خاصة في أزمنة الفتن، وانتشار الشهوات، وانحلال الأخلاق، وكثرة الفساد الناجم عن خبث النفوس، وعدم تزكيتها.

كما يفهم من الآيات السابقة الذكر: أن التزكية لا تكون إلا من خلال مربي ومعلم، ليختصر طريق الوصول إلي الله تعالي؛ من خلال الفهم السديد لنصوص الوحي؛ ففي جميع

(7) أمراض القلب وشفاؤها: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ) الناشر: المطبعة السلفية – القاهرة الطبعة: الثانية، 1399هـ ص5

(8) التحرير والتنوير 1 /723

الآيات بين الله تعالى أن من يقوم بعملية التزكية والتعليم هو الرسول صلي الله عليه وسلم، من خلال الوحي الشريف الذي يتنزل عليه، ويخلفه في هذا الشأن: ورثته الذين هم العلماء والدعاة إلى الله على بصيرة .

ويلاحظ أيضا: أن التزكية عملية متجددة لا تنتهي؛ يظهر ذلك من خلال استخدام أسلوب المضارعة في خطاب القرءان في هذا الشأن " يتلوا عليهم، ويزكيهم، ويعلمهم، " قال أبو حيان التوحيدي " وأتى بهذه الصفات فعلا مضارعا ليدل بذلك على التجدد، لأن التلاوة والتزكية والتعليم تتجدد دائما."[9]

ومن هنا يمكن تفسير تقدم التزكية حينا على التعليم في بعض المواضع وتقديم التعليم على التزكية في مواضع أخري لتستمر عملية التزكية قبل التعلم وبعده؛ فهي متجددة، ومتكررة، ويشهد لهذا المعني قوله تعالى " واتَّقوا اللهَ ويعلِّمكم اللهُ واللهُ بكلِّ شيءٍ عليم")[البقرة :282] أو أن التقديم من باب ذكر الغاية قبل الوسيلة للتأكيد عليها كما أشرت من قبل.

وبزكاء النّفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحقّ في الدّنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة؛ وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره، وذلك ينسب تارة إلى العبد لكونه مكتسبا لذلك، نحو: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زكّاها [الشمس: 9]، وتارة ينسب إلى الله تعالى، لكونه فاعلا لذلك في الحقيقة نحو: بَلِ اللهُ يزكّي مَنْ يَشاءُ [النساء: 49]، وتارة إلى النّبيّ لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم، نحو: تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بها [التوبة: 103]، يتلوا عليكم آياتنا وَيُزَكِّيكُمْ [البقرة:151]، وتارة إلى العبادة التي هي آلة في ذلك، نحو: وحناناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكاةً [مريم: 13]، لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا [مريم :19]، أي: مزكّى بالخلقة، وذلك على طريق

(9) البحر المحيط في التفسير المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: 1420 هـ 2 / 47.

2807ما ذكرنا من الاجتباء ؛ وهو أن يجعل بعض عباده عالما وطاهر الخلق لا بالتّعلّم والممارسة بل بتوفيق إلهي، كما يكون لجلّ الأنبياء والرسل.. "[10]

وعملية التزكية عملية مركبة: بمعني أنه يشترك في تحصيلها الفرد ذاته؛ من خلال الرجوع إلي نفسه، وتنقية سريرته من الأمراض التي قد تعلق بها، بسبب البيئة وعوامل أخري؛ فيتأثر بها بلا شك كما هو حال كثير من الناس، أو بسبب خارجي قائم علي حث الدعاة والعلماء علي التزكية من خلال وسائل وأساليب دعوية سنتعرف عليه لاحقا .

فالتزكية في هذه الحالة عملية فردية أحادية، يقوم بها الفرد السّوى من داخله، ومن أعماق نفسه، وهى ما يسمى بعملية (المحاسبة والتطهير الذاتي) وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في أطول قسم في كتاب الله تعالى في سورة الشمس قال تعالى " وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)

فأشار القرآن الكريم إلى أن فلاح الإنسان في الدنيا والآخرة متوقف بشكل أساسي ؛على رجوعه إلى ذاته، ومحاسبته لنفسه، وتطهير داخله بالوسائل والأساليب التي سوف نتحدث عنها لاحقا .

وعلى العكس فإن الخزي كل الخزي، والإخفاق كل الإخفاق في إهمال النفس وعدم تزكيتها، كما قال تعالى ذكره (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس]10

" وقد أجمع علماء القلوب على أن القلوب لا تصل إلى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة زكية، وأن الله تعالي طيب لا يقبل إلا طيبا، وكلما طابت النفس وزكت قربها الله تعالى؛ فتسعد وتأنس وتستغنى بالله تعالى، وكلما عصى العبد ربه، وصغر نفسه وحقرها بمعصية الله تعالى؛ طرده الله عن حضرته، وأبعده بقدر جنايته،

[10] المفردات في غريب القرآن المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ) تحقيق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت الطبعة: الأولى - 1412 هـ 1 /381

فتحدث الوحشة بينه وبين خالقه، كما يستوحش أيضا من الناس؛ ولو كانوا من حوله، وتلك سنة الله في خلقه" ([11])

وكما أن هناك أفراداً طاهري المخبر والمظهر في أي مجتمع، وهم _في الحقيقة _ صمام الأمان في الناس، وبهم ترتجى الرحمات، يفطنون لهذا الأمر ويوفقون لتزكية نفوسهم ؛ فهناك كثيرون في حاجة ماسة إلى الوعظ والتذكير، وقيام المصلحين والدعاة إلى الله تعالى بواجب النصح والإرشاد لهم، متخذين في فعلهم هذا النبي صلى الله عليه وسلم أسوةً لهم؛ فهو الذى بعث معلما، ومزكيا للأنفس من أدران الشرك والمعاصي وعادات الجاهلية وقيمها السلبية، إلى العمل على بذر الخير والدعوة إليه بالحال والمقال، والعمل على تخلية قلوب الناس من أمراض القلوب التي هي _ في حقيقتها_ أشد فتكا من أمراض الأبدان، مثل (الشرك والرياء، والعجب، والكبر، والبغض والحسد، والشح والبخل، والغضب، والحرص على الدنيا وحبها لذاتها وإيثارها على الآخرة) ثم تحليتها بالأخلاق القويمة؛ التي يحصد المجتمع من ورائها الخير والرشد والسعادة في الدارين مثل(التوحيد والإخلاص والصبر، والتوكل والإنابة، والتوبة، والشكر، والخوف والرجاء، وحسن الخلق في التعامل مع الناس، والشفقة عليهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ونفعهم بقدر المستطاع).

فكما هو ملاحظ: أن عملية التزكية سلوك فردى يؤديه الانسان على المستوى الشخصي، وأداء جماعي في الوقت نفسه، كما هو معلوم في أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأبواب النصيحة للمسلمين .

ئكلضكا ئكتئكت: لهف ئكزمب ئكماهيب لم ئكةرقيب

والمتأمل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم يجده قد اهتم كل الاهتمام، وأعطى كل الأولوية لقضية التزكية وتهذيب السلوك الذي هو في جوهره ثمرة لتلك التزكية التي استقرت في الأنفس والأرواح لدي أتباعه.

ألم تر كيف كان فعله صلي الله عليه وسلم مع أصحابه والمؤمنين به؟

([11]) التزكية، د احمد فريد ص 8 مكتبة الايمان الإسكندرية

2809 لقد أمضى ثلاث عشرة سنة في مكة يدعوا إلى تلك القيم، وإلى تهذيب النفوس واصلاحها بالعمل على إزالة الحجب بينها وبين خالقها جل وتعالى، من خلال الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به وتنزيهه تعالى عن النقائص، وهذا الأمر هو بمقام الرأس من الجسد في باب التزكية، لذا اجتمعت كلمة المفسرين على أن تطهير الرسول صلي الله عليه وسلم لنفوس أتباعه كانت بإزالة النقائص عنهم وأكبر النقائص الشرك بالله تعالى والجهل به، ويتبع هذا الانحراف الفكري والعقدي الانحراف السلوكي والخلقي بالضرورة.

والشواهد من السيرة والأحاديث النبوية أكثر من أن تحصى في هذا الصدد، لكن يكفي أن نشير إلها إشارة مقتضبة فليس المقام مقام تفصيل.

فإن المتأمل في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم _سواء في العهد المكي، أو العهد المدني_؛ يجد اهتماما بالغا منه صلي الله عليه وسلم بتفقد قلوب أصحابه، وتخوله لهم بالموعظة التي منها ترق القلوب، وتخشع النفوس لها وتلين.

ففي الحديث الذي أخرجه (البخاري) بسنده عن (ابن مسعود) رضى الله عنه أنه قال: " كان النبي صلى الله عليه وسلم «يتخولنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا»([12]) ولا شك أن الموعظة ضرب من ضروب التزكية؛ بل من أهم ضروبها.

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان أحيانا يشتد في الوعظ والتذكير بما به تتصلح القلوب وتنزجر عن الرذائل، ففي الحديث عن (العرباض بن سارية) رضى الله عنه أنه قال: " وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، قلنا: يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ قال: " قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم، فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعليكم بالطاعة، وإن عبدا حبشيا عضوا عليها بالنواجذ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد " [13]

وفى حديث آخر: بين صلي الله عليه وسلم أن للإيمان حلاوة يجده الإنسان في قلبه، وأن من يتذوق هذه الحلاوة الذي أخلص حبه لله تعالى ولرسوله ؛فعن (أنس بن مالك) _

---

[12] البخاري 1 /25

[13] رواه الامام أحمد في المسند بسند حسن 367/28

رضي الله عنه_ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار " [14]

ومع أنه صلي الله عليه وسلم كان أعبد الناس لربه؛ فهو يربي بالقدوة وبالعمل قبل القول والوعظ ؛ ففي الحديث عن (عائشة) رضى الله عنها:" أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا فلما كثر لحمه صلى جالسا، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع» [15].

وكان لا يتوانى أن يهذب من سلوك أتباعه؛ فعن (المعرور بن سويد)_ رضي الله عنه_، قال: لقيت (أبا ذر) بالربذة، وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني سببت رجلا فعيرته بأمه، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: « يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» [16].

بل إنه صلى الله عليه وسلم كان يربي أصحابه على تزكية نفوسهم، وذلك بنبذ كل معاني الشرك: القولية، والفعلية، تأديبا لهم وتربية على صفاء التوحيد، ونقاء العقيدة، فعن(زيد بن خالد الجهني) _ رضي الله عنه _، أنه قال: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب " [17]

---

[14] أخرجه البخاري 1 /12 ومسلم 1 /66
[15] البخاري 6 /135
[16] رواه البخاري 1 /15
[17] رواه مسلم 1 /83

2811 والسنة النبوية عامرة بمثل هذه المواقف التي تجلى بوضوح مكانة التزكية من الدين، وأنها في الذروة منه وفى المراتب العليا، لما لها من أهمية، وقيمة ومكانة في الخطاب الدعوي.

ىئكلضكا ىئكئئاظ : هزئىئك ىئكةرقيبـ .

تتضافر مجموعة من الوسائل لتحقيق التزكية منها ما يلي :

1- تحقيق التوحيد الخالص لله تعالي

وشاهد ذلك قول الله تعالى "وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ" (فصلت 6، 7) قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة... والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. [18] فإن أولي ما تتزكي به الأنفس هو الإذعان لله تعالى بالقبول، والانقياد له بالطاعة، حبا له وتذللا إليه، وهذه هي حقيقة العبودية (كمال الحب مع كمال الذل) .

قال (ابن القيم) _ رحمه الله _ في آية فصلت "قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذى به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفى إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه؛ وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكى- وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة- فإنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكى ينتظم الأمرين جمعياً. فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح. هو التوحيد. [19]

كما سمى الله تعالى الشرك رجسا، ووسمه بالنجاسة، قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: 30]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28]. فدل مفهوم الآيتين على أن الطهارة والتزكية ؛ في التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى، ولذلك قال موسى لفرعون وهو يدعوه إلى التوحيد: ﴿هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: 18 . 19].

2-أداء الواجبات وترك المحرمات

فإن أولي ما يتقرب به إلي الله تعالى بعد توحيده وإفراده بالعبادة هو أداء ما فرض الله تعالى، والاجتهاد في تحسين العبادة على الوجه المطلوب، ثم يعقب أداء الفرائض الاكثار من النوافل، والعمدة في ذلك: حديث الولاية الذى أخرجه البخاري في صحيحه عن (أبي هريرة)

---

[18] ابن كثير 7 /164

[19] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ) تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية 1 /49

2813_ رضي الله عنه _ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته " [20] ففي الحديث: يبين الرب _ سبحانه وتعالي _ أنه ليس هناك من الأعمال شيء يتقرب به صاحبه إلى ربه أفضل وأجل من أداء ما فرض، واجتناب ما عنه نهي وزجر، قال(ابن حجر) _ رحمه الله _ : "ويستفاد منه: أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله، قال الطوفي : الأمر بالفرائض جازم ويقع بتركها المعاقبة بخلاف النفل في الأمرين وإن اشترك مع الفرائض في تحصيل الثواب فكانت الفرائض أكمل فلهذا كانت أحب إلى الله تعالى وأشد تقريبا وأيضا فالفرض كالأصل والأس، والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر، واحترام الآمر وتعظيمه بالانقياد إليه، وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية، فكان التقرب بذلك أعظم العمل والذي يؤدي الفرض قد يفعله خوفا من العقوبة، ومؤدي النفل لا يفعله إلا إيثارا للخدمة، فيجازى بالمحبة التي هي غاية مطلوب من يتقرب بخدمته..." [21]

ويؤيده حديث طلحة بن عبيد الله، يقول: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس، يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول، حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خمس صلوات في اليوم والليلة». فقال: هل على غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع». قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وصيام رمضان». قال: هل على غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوع». قال: وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة، قال: هل على غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع». قال: فأدبر الرجل وهو

---

[20] صحيح البخاري 105/8
[21] فتح الباري 11 /343

يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفلح إن صدق»[22] وشواهد اخري كثيرة في هذا المعني .

ثم إن ترك المحرمات داخلة ضمنا في أداء الفرائض؛ بل إن دخول الفرائض التركية للمعاصي أولى من دخول فرائض الطاعات، كما يدل عليه قول الرسول صلي الله عليه وسلم "...فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» [23]

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "أفضل الأعمال أداء ما افترض الله والورع عما حرم الله وحسن النية فيما عند الله " فإن الدين كله يرجع إلى فعل المأمورات، وترك المحظورات، والتوقف عن الشبهات" [24]

3- فعل النوافل وتحصيلها

والمقصود بالنوافل : هي ما عدا الفرائض من أصناف الطاعات، وهي كل ما رغب الله فيه ورسوله من غير حتم وافتراض، وهي في الحقيقة مكملة للفرائض ومتممة لها، كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: " فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء، قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك." [25] فعلم بذلك : أن النوافل متتمة للفرائض وجابرة للنقص الحاصل فيها.

ولا يخفي علي العاقل أن الله تعالي يفتح علي بعض عباده في أمر النوافل وأنواعها مالا يكون لغيرهم؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، يصدق هذا حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أنفق زوجين من ماله دعي من أبواب الجنة، والجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان»، قال: فقال أبو بكر: والله يا

---

90 البخاري 1 /18

[23] البخاري 9 /94

[24] جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: 795هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت 1 / 71

[25] مسند أحمد 1 /535

2815رسول الله، ما على أحد من ضرورة أن يدخل من أيها دعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسولِ الله؟ قال: «نعم، وإني لأرجو أن تكون منهم» [26]

وينبغي أن يعلم : أن الداعي إلي الله تعالي أحوج من المدعوين في تحصيل التزكية وتحقيقها؛ حتى يطابق الفعل القول، وحتى تثمر الدعوة وتؤتي أكلها، وإلا فإنه من المعلوم أن فاقد الشيء لا يعطيه، ولن يستقيم الظل والعدو أعوج.

والنبي صلي الله عليه وسلم وهو إمام الدعاة بين هذا المعنى وجلاه بقوله " أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [27] وقوله " «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»([28]) دل هذا على أن الدعوة بالقدوة تؤثر كل التأثير ويكون لها القبول بفضل الله تعالى.

المطلب الخامس : الغاية من التزكية

من المعلوم أن لكل فعل غايةٌ وهدف؛ سواء في تحصيله والإتيان به، أو في تركه والإعراض عنه؛ وهذا أمر بديهي، ومنطقي؛ والنيات هي الحاكمة على قبول الأفعال أو ردها فقد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما جاهر إليه) " [29]

والغاية من التزكية والهدف منها: هو تحقيق كمال العبودية لله تعالي، والاستسلام له ظاهرا وباطنا إلى أن يلقى العبد ربه بقلب سليم في الآخرة _ التي هي خير له من الأولي _، وبتحقيق هذا المعني يستغني العبد بالله، ويسعد به ويصل إلى محبته ورضاه، ولن يصل إلى مبتغاه حتى يكون أهلا للمحبة والرضا بتخليه عن مساخط الله وتحليه بلباس التقوى " وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ "[الأعراف :26]

---

[26] البخاري 5 /6
[27] البخاري 7 /2
[28] البخاري 4 /95
[29] البخاري 1 /6

وليس الغرض من التزكية ؛ الاستشراف لكرامة، أو حصول حالة، أو تكثير اتباع وفتنتهم، أو اسقاط تكليف وما شابه ذلك.... بدعوي الولاية، أو يكون الغرض من التزكية المحمودة؛ تزكيةً مذمومةً حذّر منها القرآن ونبه علي خطورتها في قوله تعالى: " فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى"(النجم: 32) والنيات محلها القلوب لا يطلع عليها إلا علام الغيوب _ سبحانه وتعالي _ فينبغي إصلاح النوايا ومجاهدة النفوس من الانزلاق الي منحدر خطير عاقبته إلي بوار وندامة .

والشيخ (بن عطاء الله) _ رحمه الله_ متربع على عرش الوعظ بشهادة المؤرخين، فقد اتخذ التزكية منهجا له في الدروس والوعظ، والعمل علي إصلاح النفوس وتزكيتها بالترغيب تارة وبالترهيب أخري .

يقول عنه (ابن آيبك الصفدي) _ رحمه الله _ :" كان رجلاً صالحاً له ذوق، وفي كلامه ترويح للنفس وسوق إلى الشوق، يتكلّم على كرسي في الجوامع، ويقيد المارقين بأغلالٍ وجوامع، وله إلمام بآثار السلف الصالح، وكلام الصوفية، إذا هبّ نسيمه العاطر الفائح شوّق كثيراً من القلوب، ومحا بالدموع غزيراً من الذنوب، وله مشاركة في الفضائل، وعليه للصَّلاح سيماء ودلائل "[30] .

وهذه شهادة في غاية الأهمية : تظهر فيها ملامح شخصية الشيخ بن (عطاء الله) فقد كان عليه سيماء الصلاح والتقوى؛ والمظهر غالبا يدل على المخبر والجوهر، وهذا حال العلماء العاملين في كل زمان ومكان؛ فهيبة العلم، ونور التقوى، يحفان العالم والواعظ في كل الأحوال.

قال(ابن الخياط) يمدح الإمام (مالك بن أنس)_ رحمه الله_ :

يدع الجواب فلا يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان

نور الوقار وعز سلطان التقى ... فهو المهيب وليس ذا سلطان

والشيخ (ابن عطاء الله) قد تميز في جانب التزكية واتخذها منهجا لدعوته في دروسه، وكتاباته، ومناجاته ... الخ مما يؤكد تفرده في هذا الباب دون غيره من معاصريه؛ بل ومن

---

[30] : أعيان العصر وأعوان النصر صلاح الدين بن أيبك الصفدي 1 /345.

2817الذين أتوا من بعده، وتكاد تكون مؤلفات الشيخ منحصرة في هذا الاطار؛ فكلها تحوم حول الاهتمام بالنفس، ومعالجة أسقامها، وتخليتها من علائق الشهوات، وتحليتها بمنازل القرب، وفضائل الشوق وخلوص المحبة، وهو في هذا المنحى يرى نجاعة العلاج القائم على إصلاح الفرد من الداخل؛ حتي يكون أهلا للتمكين والنصر، بعد أن استذلته الشهوات، وقطعته الشبهات، عن الحقائق المكنونة في نفوس المخلصين، وآل به الحال إلى التردي في مستنقعات الفتن، بسبب انتصار الهوى، وتمكن الأنا، ولا سبيل إلى إصلاح ما فسد إلا بالرجوع إلى النفس وإصلاحها والانتصار عليها، وخطامها بخطام الشرع الحنيف وهذا مضمون قوله تعالى"إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ ما بِقومٍ حتَّى يغيِّروا ما بأَنفسهم..."[الرعد :11] ولا شك أن هذا ثغر من ثغور الدين لابد من أن يسد، وقد رابط عليه الشيخ (ابن عطاء الله) خير رباط رحمه الله ورضي عنه.